المدونة العقدية وثيقة تاريخية: سبل الإفادة وعائد الاستفادة (العقائد السنوسية أنموذجا)

نذير برزاق*

مقدمة: للمادة التاريخية التي في متناول الباحث في تاريخ العصر الوسيط التي تتضمن المؤلفات الكلاسيكية التاريخية والجغرافية والأدبية والفقهية لَتبعث على تسجيل الملاحظة الأساسية التالية: هذه المستندات برمتها تبقى غير كافية لإدراك عمران الحدث التاريخي والوضع الاجتماعي والصراع الفكري الذي طبع واقع الحال.

والتساؤل عن النجاعة الكمية والكيفية للمؤلفات الكلاسيكية لَيُحفز المؤرخ إلى البحث عن مصادر أخرى من شأنها تدعيم حال الوضع وتبصير الباحث أثناء كتابة الحدث، ونشير هنا إلى مادة مصدرية جوهرية من شأنها تقديم لبنة إضافية نحن بصدد رصد أهميتها والمتمثلة في: كتب العقيدة أو المدونة العقدية.

والملفت للنظر قلة الاهتمام بكتب العقيدة واعتمادها كمرتكز في البحث التاريخي، ولعل النظرة المسبَّقة لطبيعة موضوعها جعل الباحثين لا يلقون لها بالا، وينفرون من خطابها الكلامي العقدي، لكن المفعم بالأحداث والإشارات للواقع التاريخي زمن المؤلِّف وحتى قبله؛ فهي تشكل إحدى المستندات التي تفرض نفسها على الباحث للاستثمار فيها، وتُعدُّ لبنة مهمة لبناء نسق علم ومتكامل للنص من مختلف الجوانب، لذا فإن الانفتاح على المدونة العقدية وولوج غياهبها تُمكِّن الباحث من تدعيم وترميم هيكلة الحدث والواقع التاريخي بنظرة أكثر شمولية وتُمكِّنه من إلقاء ضوء خافت على زوايا عدّة غطت عليها حجب متنوعة.

والإشكال المطروح هو: ما هي تجليات الواقع التاريخي في المدونة العقدية؟ وفيم تكمن أهمية كتب العقائد لرصد واقع الحالة العلمية الثقافية والاجتماعية؟ وإلى أيِّ مدى يمكن المراهنة على المدونة العقدية في تطعيم عمران النص والحدث ضمن سياقه التاريخي والواقعي ونجاعة استفادة المؤرخ منه؟

علما أن نظرنا سيكون منصبا على قراءة بعض المتون التي ضمّتها عقائد محمد بن يوسف السنوسي (ت895هـ/1489م) كأنموذج أردنا به الولوج إلى لجحه، ويظل مرصدنا مشدودا إليها علّنا نظفر من

*طالب دكتوراه ل.م.د - قسم التاريخ والآثار. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة سطيف.

مواكبة تلك المتون بما يمكّننا من الإحاطة على حالة العصر وإبراز نجاعة كتب العقيدة في إمدادنا بخيوط ملابسات الواقع وموجّهات الحدث.

أولا: علم العقيدة في المغرب الأوسط:

1- عناية علماء المغرب الأوسط بعلم العقيدة: تُعدُّ العقيدة أهم العلوم وأجلّها، واحتلت رتبة سامية في تصنيف العلوم نظرا لأهميتها في صيانة المجتمع والحفاظ على خصوصيته ومعتقده وإبراز هويته الدينية، فقوة المجتمع وضعفه ظلّ رهين طبيعة علاقته بعقيدته؛ فإن كانوا في علاقة متفعلة ومباشرة بهذه العقيدة في أصولها كانوا أقوياء بها، وإن قلدوا هذه العلاقة المباشرة بتدخل الوسائط وتراكم الخرافات والتأويلات الزائفة فقدوا تلك الفعالية اللافتة[1].

لذا ثمة جمٌّ من علماء المغرب الأوسط ألّفوا في موسم العقيدة الكثير من التصانيف، وكانت الغاية من وراء ذلك تثبيت العقيدة الصحيحة في نفوس المسلمين ومحاربة كل ما يشوبها من مفاسد التصورات والممارسات، وفي نفس الوقت محاولة الرد على شبهات غير المسلمين في مجال الاعتقاد[2]، ومن الذين خاضوا غمار التصنيف فيها ابن مرزوق الحفيد (ت 842هـ/1438م) بـ"عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمة التقليد"[3]، وعبد الرحمن الثعالبي (ت875هـ/1470م) بـ"حقائق التوحيد"[4]، وأحمد عبد الله الجزائري الزواوي (ت884هـ/1479م) بـ"الجزائرية" أو "المنظومة اللامية"[5]، ومحمد بن يوسف السنوسي (ت895هـ/1489م) في سلسلة من العقائد، وأحمد بن زكري (ت899هـ/1493م) بـ"محصل المقاصد مما به تعتبر العقائد"[6]، وغيرهم كثير.

ولعلّ أهم وأبرز شخصية عالمة أبدعت في تطعيم علم العقيدة تصنيفا وتدريسا، بفضل إنتاجه الغزير في هذا العلم الذي أضحى مرجعا مقرّرا وقتئذ، وبالخصوص بعدئذ، محمد بن يوسف السنوسي، وبروزه كشخصية ارتبط بمجموعة من العوامل المساعدة على ذلك ليتفوق على أقرانه في عصره، وأن يكون له السبق في القيادة المعرفية والإصلاحية في زمانه وتمتد قيادته معنويا ومعرفيا للوقت الحاضر[7].

ويعدُّ مبحث التوحيد أهم مباحث علم العقيدة لما له من فعّالية وتأثير في النفوس والمعتقدات وتخليص الذهنيات من الشوائب ومحاربة البدع بكل صنوفها، وكذا مجابهة آراء الملل والنحل، أضف إلى ذلك التصدي لممارسات المتصوفة، والحد من تأثيرها الاجتماعي والديني لغير المؤسَّس.

لذا ينهض نصٌّ للإمام السنوسي يوضح لنا بجلاء داعي الاهتمام بعلم التوحيد -كما يسميه هو- عند سلف وخلف الأمة يقول: "علماء السنة ألّفوا في علم التوحيد ليبيّنوا للناس ما كان عليه السلف الصالح، وصار لشهرته ووضوحه قبل ظهور البدع دينا لعجائزهم وإمائهم وأهل بدوهم وصبيان كتاتيبهم،

وزادوا بأن حصّنوه بالبراهين العقلية التي تنتهي إلى ضرورة العقل، بحيث يخرج من أنكرها عن ديوان العقلاء، وبالأدلة العقلية القطعية فيما تقبل فيه، فهُم جعلوا على حرز دين الإسلام أسوارا، لمّا قدمت جيوش المبتدعة التي لا تحصى كثرة تريد استلاب هذا الدين وتبديله بجهالة يهلك من اتبعها، ثمّ لما أتت المبتدعة بمعاول الشبهات لتهدد بها أسوار الأدلة وبسلالم الأوهام والتخيلات لتتجاوز بها إلى حرز هذا الدين، بالغت العلماء في الاحتياط للدين، ونظرت بعين الرحمة لجميع المسلمين، فأفسدت عليهم تلك الشبهات، وفسخت لهم تلك الأوهام والتخيلات بأجوبة قاطعة لا يجد العاقل عن الإذعان إليها سبيلا، وأنفقوا في جميع ذلك الذخائر التي حصلت لهم من الكتاب والسنة وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم"[8].

وبهذا يبرز لنا داعي الرغبة لتلك الهبّة التي هبّها علماء الأمة عامة، وكذا أعلام المغرب الأوسط خصوصا للاعتناء بالعقيدة وتوضيح وتبسيط مفاهيمها، وإزالة كل أنواع التكلّسات عليها، وقيادة المجتمع بإيقاد فكره إلى بر الاعتقاد وسلامة السلوك.

2- عقائد الإمام السنوسي.. الظرفية الزمانية والمكانية: بروز عقائد السنوسي على واجهة التأليف الإبداعية الكلامية لم يكن بمحض الصدفة أو من منطلق غير مؤسَّس ومبرَّر، حيث طفت على سطح الاهتمامات والعناية بها زمنها وبعدها بتلمسان وغيرها مغربا ومشرقا، فكانت كتبه بحق عمدة دراسة العقائد في البلاد الإسلامية[9]، ومرجعا تأصيليا لعديد القضايا الكلامية.

فقد ملأت مؤلفاته الفراغ الذي وقع ما بعد عصر الموحدين في المجال العقدي، وغدت المرجعية الجديدة للثقافة العقدية، بل أسست لمرحلة تاريخية من التجديد الفكري غايتها بعث العقيدة الأشعرية من جديد[10]، فجاءت لإعادة هيكلة البناء العقدي وترميمه من آثار الزوبعة العقائدية التومرتية بإرساء وترسيخ العقيدة الأشعرية في النفوس[11]؛ وجعلها متنفسا عقديا لما بعد الموحدين، وإن كان منطلقه الفكري العقلي مستوحى من إرث تلك الفترة بتأثره بالإنتاج العقلي لأساطينه[12].

أضف إلى الظرف الزماني الواقع المكاني؛ حيث تعد تلمسان أهم مشتلة مغرب أوسطية أنجبت نخبا عالمة وأسرا علمية على نحو: آل العقباني، وآل المقري، والمرازقة... خاصة خلال القرنين 8-9هـ/14-15م، إلا أن هذا لم يمنع من أن تكون مرجلا يحوي سلوكات ومعتقدات ومظاهر لم يجد العلماء منها رغم نداءاتهم الإصلاحية في مجالس الدرس أو بالتأليف للتصدي للمظاهر المنافية للعرف والدين كبدع التبرك بالأولياء والأضرحة والقضايا الاجتماعية كالشرف والشرفاء وأدعياء التصوف.

فهذا أنهض السنوسي مصلحا لمعالجة زاوية للمنظومة العقدية بتصنيفه الإبداعي لعقائده خاصة الستة، أين راعى فيها الفروق الإدراكية الاستيعابية، ولم يستثن أحدا في مخططه الإصلاحي الشامل الممتد عموديا وأفقيا؛ فألف "العقيدة الكبرى" لذوي المستوى الفكري المرتفع، وصنف "العقيدة" للولدان والنساء للمؤمنات، وبينهما تبوأت "الوسطى"، و"الصغرى"، و"صغرى الصغرى"، و"صغرى صغرى الصغرى"، وهي المعروفة بالعقيدة السادسة أو بـ: "الخفيدة" المقام الذي يليق بها بحسب تفاوت العقول[13].

3- **الإمام السنوسي والواقع.. التشخيص والإصلاح**: نظرا للمخاطر التي باتت تتربص بعلمة المسلمين وخاصتهم من جهة العقيدة، فإن الإمام السنوسي اضطره الوضع إلى التدوين في العقائد لأجل محاربة فساد الاعتقاد وتسديد للمسلمين إلى العقيدة الصافية[14]؛ اعتبارا للمحيط الذي عاش فيه والتميز بتعدد عوائد الناس وطبائعهم وتنوع انشغالاتهم وتوجهاتهم وانحلال أخلاقهم وتباعد فهومهم للدين، فأراد أن يعرف الأسباب التي كانت وراء سوء أحوالهم بقصد التحكم فيها، فوقف لملاحظة واقعهم وتقييد معطياته وتحليلها.

وخلُص إلى أنهم يعانون من آفات اجتماعية وخلُقية وسياسية وفكرية وعقائدية خطيرة، وشعر بأن له مهمة التكفل بمعالجة هاته الآفات ولم ير من الوسائل أنجع من العودة إلى الأصل الذائع للإسلام ويقصد به عقيدة التوحيد[15]، حيث لاحظ من اشتغل بغير منهج السلف في الاعتقاد وسعى إلى إثارة عقيدة جديدة تُبعد الناس عن اعتقاد السلف[16].

لذا فقد كان السنوسي شاهدا على انتكاسة فكرية وتردٍ ثقافي وحقبة مليئة بالتقلبات السياسية والاجتماعية[17]؛ على الرغم من أن عصره كان مشحونا بأسماء بارزة كما ونوعا غير أن الجمود واستحكام الفتن بصمت على الواقع ولم تعد نداءات الإصلاح تُصغى إليها.

والتحمت صورة الوضع الاجتماعي والمنسوب الديني مع التقلبات السياسية من تناحر الأبناء على السلطة الزيانية، وخوض يهود توات بشأنهم وممارساتهم ومركزيتهم في المنطقة، بل أبعد من هذا في مخيلة الإمام السنوسي الذي كانت بصيرته وهمته وهمّه معلّقين بالأندلس، ما جعله يكرر شكاويه من زمانه وأهل زمانه؛ من انشغالهم عن القيام بواجبهم الشرعي نحو إخوانهم في العقيدة حتى سقطت آخر معاقل الأندلس غرناطة على يد النصارى عامين بعد وفاة الإمام السنوسي، وذلك عام 897هـ/1492[18]، فقد توفي السنوسي وهم على مشارف المدينة بحاصروها، فرحل وفي نفسه غصّة وألم نفث بعضه في مؤلفاته عندما يشتكي من الزمان وما آل إليه من فساد عمّ وطمّ[19]، فكان الإمام السنوسي يحق: جهود فرد وهمُّ أمّة.

عوامل جمّة أنهضت السنوسي مصلحا غير راض بالواقع المرير، وموقعه الاجتماعي والعلمي بعث فيه الشعور بالمسؤولية الدينية الملقاة على عاتقه نحو الأمة بحكم انتمائه لطبقة الخاصة من العلماء، فإنه يعي مسؤوليته الفردية والجماعية لمعنى الخيرية المرتبطة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أي مسؤوليته الدينية والدنيوية عن الأوضاع المعاشة؛ وأحس بالمأمورية الإصلاحية وفق الترتيب الثلاثي من التغيير باليد، واللسان، والإنكار القلبي، كيف لا وهو تلميذ الشيخ عبد الرحمن الثعالبي[20].

فكان الباعث الديني يحرك في نفسه المسؤولية عن نقد وإصلاح الأوضاع بالطرق العلمية خاصة أنه رأى عند البعض بدعا مريبا وأباطيل تتنافى مع مقتضيات الشريعة[21]، أضف ما كان يراه من انتشار لأدعياء المتصوفة الدجاجلة ممن انتمى إلى الرهبانية، وكذا معاناته من معاملات الحكام ومحتمعه فكان لا يرتاح إليهم ولا إلى مجتمع عصره لأن الزمان في نظره قد تبدل وكثرت فيه الشرور فوجب الفرار منه إلى الله والنجاة بالنفس من الانحراف السياسي والاجتماعي عند المسلمين[22].

لذا أتت إصلاحية السنوسي رسالية تقويمية تصحيحية لمفاهيم خاطئة رآها سبب هذا الاعوجاج والمتمثلة حسبه في[23]:

- الجهل المنتشر بين طبقة الخاصة بإحجامها عن الدراسة والنظر.
- قضية التقليد والمقلد وحدوده عند الخاصة والعامة.
- علم الكلام الممزوج بالفلسفة.
- الجهل والأمية وتردي المستوى العلمي.
- الفتور الديني وفقدان ميزان الأولويات لدى أفراد المجتمع خاصتهم وعامتهم.

ثانيا: عقائد السنوسي وثيقة تاريخية؟:

1- **وثيقة منهجية**: إن ذيوع صيت عقائد السنوسي والاهتمام البالغ بها في مختلف الأقطار الإسلامية، وعلى مرور الحقب الزمانية، جعلنا نصوّب إليها سهام الاهتمام للتنقيب عن نصوصها ومحيط إنتاجها، كما أن تقصي أثر الاعتماد على المدونة العقدية في الأطاريح الجامعية والكتابات التاريخية جعلنا نلاحظ قلة استنباط لمادة تاريخية المحيطة بالحدث من كتب العقيدة، رغم تعالي أصوات حول ضرورة كتابة الحدث من مختلف المصادر: الفقهية النازلة، والتراجم، والمناقب، والبرامج ...إلخ؛ نظرا لصنّاع الحدث وأهل الشهود للعصر الذين اختلفت وجهات رأيهم وزوايا نظرهم، وأماكن تقييد قناعاتهم وتحليلاتهم.

لذا ضم كتب العقيدة إلى البث البيليوغرافي أضحى لا مناص منه لنجاعتها في تقديم ولو ضوء خافت عن حيثيات الحدث والعصر؛ خاصة في زاوية المعتقد والسلوك والحالة الاجتماعية والثقافية.

وإماطة اللثام عن موضوع ما من زاوية نظر شخصية عالمة واحدة تترك الباحث في متاهات التناقض والاضطراب والالتجاء أحيانا للتكهنات بسبب ضيق زاوية المعالجة، وتبني اختيار الاعتماد على زاوية نظر السنوسي المنبثة في عقائده عن أحوال عصره يجعلنا أمام أسلوب يتميز بالاختصار والتعميم نظرا للمعطى الذاتي والنظرة الأحادية إلا أنه أحد السبل الناجعة والجديرة بالاهتمام والبحث لفهم أي شخصية وعصره ومحيط إنتاج تراثه فهو منهج يكشف العديد من نقاط الظل أرقت الباحثين لتكوين شمولية عن صنع الحدث وتداعياته وروح العصر الذي يعيش فيه ومنطلقات تصوراته ودلائل حلوله.

فضِمن نصوص عقائد الإمام السنوسي نعثر على إشارات ذات قيمة تاريخية تساهم في إضافة مرتكزات لمعرفة الواقع والكتابة عنه، فجاءت حالة العصر الذي عاش فيه السنوسي ق 9هـ/15م مفعمة بالأحكام العامة والأسباب الرئيسية الدافعة لإصدار تلك الأحكام، فكان مجمل حكمه على الأوضاع بـ: الزمان الصعب -الزمان الكثير الشر- الزمان الكثير الجهل... إلخ، واستنبط مكمن الخلل المتمثل في الجهل والتقليد من الجانب المعرفي وبفساد الأخلاق وانتشار الشر والباطل والفتن من الجانب الاجتماعي الأخلاقي، فشخصنة الأوضاع كانت المحطة الأولى للسنوسي فصوّر الجو الفكري والاجتماعي السائد واقفا بعدها على الأسباب والمسالك المؤدية إلى هذا الوضع المزري وإن كان الوصف واحد مشترك عن الزمان إلا أن الأسباب متعددة.

وإمدادات كتب العقيدة لكتابة الحدث والعصر بالمعطيات التاريخية تتجلى في ملامح عدّة تكمن في:

- مظاهر الجدل بين العلماء وتباين المواقف حول القضايا المختلف فيها.
- الفرق المنتشرة زمن التأليف وآرائها وسلك سبلها من طرف المجتمع.
- تلميحات بين ثنايا النصوص عن مستوى اعتقاد العامة والخاصة.
- بروز مظاهر تصويرية عن انتشار البدع والمعتقدات الباطلة والحالة الاجتماعية والأخلاقية، وهذا كله بـ:- شذرات المصطلحات التي تعكس الواقع بين آماله وآلامه ومآله.
- قبسات من الأدعية التي تصف الحال ومظاهر الشكاوي إلى الله والتضرع إليه لفك خناق الفساد وإغاثة المستغيثين من الفتن وحالة العصر والمجتمع.

ومن بين ما وقفنا عليه في المدونة العقدية السنوسية[24] نقاط عدة ونصوص عديدة متنوعة الصور والمظاهر المقدّمة والمصطلحات الموظفة يمكن لنا أن نجملها في هذه كذا تجليات.

1- التجليات التاريخية في المدونة العقدية السنوسية:

أ- الحالة العلمية والمستوى الثقافي:

العلم والتعليم: إن اعتناء الإمام السنوسي بالتعليم ورفع المستوى كان شغله الشاغل. كيف لا، وهو من طبقة النخب العالمة، ونظرا لطبيعة تكوينه وملاحظاته أدرك أن الدرب الذي ينير عقول المجتمع بكل فئاته درب تعلم العلم، وأي علم اشترطه؟ إنه العلم النافع، ونظرا لطبيعة اهتمام العقائد بجانب سلامة المعتقد لاستقامة السلوك نظفر بإشارات عدة عن واقع الحالة العلمية وآراء العلماء والتجاذبات بينهم بالموالاة أو للمعارضة. فمن بين النصوص الوصفية: "فإن العلم النافع اليوم أهمل تعليمه إهمالا عظيما... حتى إنك لا تجد اليوم تحقيق نافع ولا سماع على وجه من أكثر مما يتعاطاه لقلة أهل العلم في أزمنتنا جدا، فمن رزق اليوم تحقيق ما يخصه من دينه ووفق للعمل به فلا شك أنه خرقت له العادة في هذا الزمان الكثير الفساد"[25].

فهو يركز على العلم لكن المقرون بالنفع والذي حسبه: علم التوحيد، ويلفت انتباهنا إلى حكم تعميمي أطلقه يفنده الواقع ولا تفنده قناعاته، وهو قلة أهل العلم في زمانه؟ فكيف هذا وتلمسان كانت خلال القرن التاسع الهجري مفعمة بالعلماء من مختلف التخصصات، واتصافهم بالموسوعية، وعددهم لا يحصى من الكثرة، ممن ترجمت لهم المصادر؛ خاصة نيل الابتهاج للتنبكتي، وكذا ابن مريم في البستان، وإن كان السنوسي لا يغتر بالكمية المتوفرة إنما كان يبحث عن الكفاءة العلمية الجديرة بكرسي التدريس، وينظر لمسألة العلم ليست ذاك الوقف على التعليم دون التطبيق، وهو ما يعرف بأحد مباحث العقيدة الأشعرية بـ: العلم والعمل هذا حين قال: "فمن رزق اليوم تحقيق ما يخصه من دينه ووفق للعمل"؛ فهو يتشدد في هذه المسألة ويوجبها ويهنئ المتصف بها في خضم الزمان الكثير الفساد حسبه.

وينقل لنا مشهدا آخر يتحدث فيه عن سبب فساد التعليم والذي يُرجعه إلى الجهل والتقليد فيقول: "لا شك أن النظر على هذا الوجه (الدليل الإجمالي) غير بعيد حصوله لمعظم هذه الأمة أو لجميعها، فيما قبل آخر الزمان الذي يرفع فيه العلم النافع، ويكثر فيه الجهل المضر، ولا يبقى فيه التقليد المطابق، فضلا عن المعرفة عند كثير ممن يُظَنُّ به العلم فضلا عن كثير من العامة ولعلنا أدركنا هذا الزمان بلا ريب"[26].

فحسبه الدليل الإجمالي- في الاعتقاد عن دليل ولو عام ولا يطلب التفاصيل التي اشترطها على الخاصة- في زمانه على شفا الاندثار ويحل محله التقليد الأعمى والاعتقاد الواهم دون سند، وهذا في نظره هو: "الزمان الذي هُوّل أمره في الأحاديث، وحذّر منه السلف الصالح، وخافوا أن يدركوه على غزارة علمهم وقوة دينهم، وها نحن أدركناه مع شدة ضعفنا علما ودينا"[27]، فهذه العبارات تنم عن اعتقاد يقيني من طرف السنوسي أنه يعيش على أعتاب آخر الزمان بفضل الأحوال التي نبّأنا بها الدليل النقلي المتمثل في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في وصفه لآخر الزمان، فالسنوسي يأخذ مقاييس حكمه على

عصره ليس بالسنين أو الحقب إنما أخذ مقياس الأحوال التي آلت إليها البشرية عصره وعلاقتها بعقيدتها لهذا قال: لعلنا أدركنا هذا الزمان بلا ريب.

وفي نفس السياق ينقل لنا ما أفرده الله له من نعيم على تنبيهه لأمور غابت عن كثير من معاصريه فيقول: "ألهم مولانا بفضله وعظيم جوده في هذا الزمان الكثير الشر لما لا نطيق شكره من معرفة عقائد الإيمان وأنزلها في صميم القلب بما يحتاج إليه من قواطع البرهان، وعلم سبحانه بمحض فضله وإحسانه جزئيات قلَّ من يعرفها اليوم ومن يُنبِّه عليها وبالخصوص من الأئمة الأعيان، وأرشد سبحانه لتحقيق أمور قد ابتلي بالغلط فيها من لا يظن به ذلك ممن عرف بكثرة الحفظ والإتقان"[28]، فهذا النص ينقل لنا السنوسي ما أنعمه الله عليه من معرفة عقائد الإيمان، ويذكر لنا بطريقة مضمرة عبارة قد لا نلقي لها بالا إلا أننا نفهم منها الكثير وكانت من أهم القضايا التي واكبت السنوسي طيلة حياته وأطنبت المصادر في نقل هذا، هل تعلم من يقصد بـ: "ابتلي بالغلط فيها من لا يظن به ذلك ممن عرف بكثرة الحفظ والإتقان"؟، هل تدرك من هذه الشخصية وهذا الذي تحاشى ذكره؟.

لعل الجواب نجده عند من اعتنى بوضع حاشية على أم البراهين وهو الشيخ محمد الدسوقي؛ ففي معرض شرحه لهذا القول قال: "وقوله ممن عرف أي عند الناس بكثرة الحفظ والإتقان أي وعرف بإتقان العلوم وأحكامها، وذلك كالعقباني فإنه كان من المعاصرين وكان يعتقد اعتقادات فاسدة... وكان كثيرا ما تقع المنازعة بينه وبين المصنف، وكابن زكري؛ كان من المعاصرين للمصنف؛ وكان كثيرا ما يقع بينهما النزاع والجدال، لكن ابن زكري كان غرضه من المناظرة إظهار الحق والوقوف عليه؛ فكان سنيا، وأما العقباني فكان من المعتزلة"[29]، فهذا المقتطف من شرح الدسوقي يوضح لنا بجلاء من هما هاذان اللذان هزمهما السنوسي، وهما: العقباني وابن زكري.

وإن أدركنا من هو ابن زكري (ت899هـ/1493م) هذا الذي ظل في سجال مع السنوسي وإن كان يشاطره المذهب والمعتقد إلا أن الاختلاف واجب الوجود فقد نقلت لنا المصادر تلك المشاحنات والمنازعات[30]، لكننا نطرح تساؤلا عن من هو العقباني المعني بهذا النزاع؟! لأنها أسرة علمية أنجبت أعلاما ذاع صيتهم وبالنظر إلى التقارب الزماني يحتمل أن يكون محمد بن أحمد بن قاسم العقباني (ت 871هـ/1466م).

ولعل احتدام الصراع بينهما لم تغفله المصادر لكن رواية الدسوقي باعتزالية العقباني جعلتنا نتتبع أثر ذلك في مدونة السنوسي وهناك إشارات لعلها تلمح عليه على شاكلة: "لقد حكى لي بعض أصحابنا مثل ذلك عمن لا يظن به ذلك ممن يتعاطى العلم بتلمسان وله أصل في رئاسة العلم، قال: وصرّح لي بأن

رأيه وعقيدته -والعياذ بالله منه ومن عقيدته- نفي المعاد البدني... قال: وجادلته في ذلك مرارا فطبع على قلبه، ولم يقبل؛ وأظن أن المصيبة جاءت الرجل من مطالعة بعض كتب الفلاسفة قبل إتقان علم التوحيد على شيخ عارف، وهذا شأن المتشدقين الخائضين فيما لا يعنيهم قبل ما يعنيهم وزادوا على العامة بالجدال في الباطل"[31].

وما يدعم رأي تطابق شخصية العقباني للمعتزلي مع هذا النص هي تلك اللفتة المهمة للباحث بلكرد بوكعبر محقق السنوسية الكبرى وشرحها حينما عثر في النسخة (ه) التي اعتمدها لتحقيق كتاب السنوسي أمام عبارة التلمساني: محمد العقباني، وما يهمنا من الروايتين هي أن هناك من يتعاطى فكر المعتزلة بتلمسان ودخوله في جدال مع العلماء على غرار السنوسي، وكذا تعاطي الفلسفة بتلمسان وتأثيرها على فكر الخاصة كأنموذجنا العقباني هذا.

ولعلي أكون مجازفا ومتحفظا- في آن- حين أسقط نصين ذكرهما السنوسي لعله يقصد بهما العقباني هذا حين قال: "رأيت ابتلاء المسلمين بكثرة من ينقل الأقوال الفاسدة ويلبس عليهم بنسبتها إلى هؤلاء الأعلام... وربما ينقلها بعض من لا خلاق له في مجلس يجمع عامة الناس ويبعثه على ذلك إظهاره أنه حافظ وما عرف الأحمق أن الحق في العقائد العقلية الدينية واحد لا يقبل الخلاف فلا يحتاج المكلف فيها إلا إلى معرفة ذلك القول الواحد"[32].

والنص الآخر هو: "يرى هذا الخبيث- لانطماس بصيرته وطرده عن باب فضل الله إلى باب غضبه- أن المشتغلين بالتفقه في دين الله تعالى العظيم الفوائد دنيا وأخرى بُلداء الطبع ناقصي الذكاء فما أجهل هذا الخبيث وأقبح سريرته وأعمى قلبه حتى رأى الظلمة نورا والنور ظلمة"[33].

إلا أن خروج السنوسي من هذه المحنة كان بالمنحة الربانية وتيسيره له بالمساهمة في تقديم دواء الداء يقول: "من جملة نعم مولانا ومنحه الفائقة أن وفقنا بفضله في هذا الزمان الكثير الجهل لوضع عقيدة صغيرة الجرم كثيرة العلم محتوية على جميع عقائد التوحيد"[34]؛ وهذه العقيدة التي يقصدها هي: العقيدة الصغرى أو المعروفة بأم البراهين؛ وأشار إلى سبب تأليفها وهو الزمان والصعوبة التي اعترته من حيث الأباطيل والأوهام وابتلاء الأمة برؤوس جهال يضعون الأمور في غير موضعها وكذا أمواج التضليل التي علت مفاهيم الناس واستشرفت عقولهم[35].

- **صور اعتقاد الخاصة:** من بين الفئات التي سلّط السنوسي عليها ضوءَ وَضْعِهَا وصُوَر حالتها ضمن ثنايا عقائده أهم طبقة في المجتمع من ناحية التقسيم المعرفي ألا وهي طبقة الخاصة، فقد تضمنت عقائده إشارات تبرز المستوى العقدي لعلماء زمانه.

فإضافة إلى الإشارة السابقة لمعتقد العقباني الاعتزالي والسحال مع ابن زكري نقل لنا اعتقاد الخاصة بصورة عامة كحالة سير الكون والكائنات نقلا عن ابن دهاق قائلا: "وهم فيها على اعتقادات فمن قال بطبعها تفعل فلا خلاف في كفره، ومن قال بقوة جعلها الله فيها كان مبتدعا وقد اختلف في كفره، قلت: وهذا القسم هو اعتقاد أكثر عامة المتفقهة في زمننا"[36].

فهذا النص يصور لنا تأثير الفكر الطبائعي الذي ينادي به الفلاسفة وهو كان كذلك مؤثرا في نفوس علماء المنطقة وقالوا بمثل رأي هؤلاء، إلا أن من هؤلاء؟ فقد قال عامة المتفقهة؛ فعبارات السنوسي ذات اتزان وتحديد دقيق فلم يكتف بقول المتفقهة إنما ميّزهم بعامة؛ ولعل هذا يبرز لنا الفصل الذي فصّل به السنوسي بين خاصة المتفقهة وعامة المتفقهة ولم يكن حكمه شمولي تعميمي، فقصده: هناك من المتفقهة ممن لم يبلغوا مدى أوسع من أمور الاعتقاد والفقه مستوى يجعله ينفر من رأي الطبائعيين الفلاسفة، كما أننا يمكن أن نفهم من تلك العبارة أن عدد جمّ والنسبة الأكبر من المتفقهة تعتقد هذا الاعتقاد بتأثير العادة في الأشياء كالنار تحرق والثوب يستر... إلخ، فنص السنوسي يفيدنا بانتشار فكر الطبائعيين الفلاسفة في المغرب الأوسط، وكذا انتشاره ليس عند العوام بل تغلغل في اعتقاد الخاصة.

وينقل لنا نصوصا أخرى تبين حالة أسفه مما وصل إليه الخاصة مع غياب تراتبية الاهتمامات والاشتغال عندهم ويشكو من حالة العوز الديني واشتغالهم بما لا طائل من نجاعته في حياتهم يقول: "وما أحوج كثيرا من متفقهة زماننا إلى تعليمهم أصول دينهم والاشتغال بما يعنيهم عن كثير مما لا يعنيهم فكيف بعوامهم، لكن أين الحق وأهله وأين من قبله؟ على تقدير وجوده نادرا فمن ظفر بمعرفة الحق في هذا الزمان ثمّ وُفّق للعمل به فليكثر من شكر الله تعالى غاية جهده وليعد ذلك من خوارق العادة في هذا الزمان"[37].

فهذا لعله أبلغ تصوير عن اهتمامات المتفقهة وانشغالاتهم، فرأى الأَوْلَى تعليم المتفقهة أصول دينهم وتثبيت المسائل عندهم ثم عنايتهم بما فيه نجاعة لدينهم ودنياهم وآخرتهم ونبذ كل ما لا يقدم للدين أي إضافة وتنمية لمعارفهم، وتساءل إن كان هذا حال عوام المتفقهة من طبقة الخاصة: فكيف بعوامهم؟ وعرّج على مسألة ذات قرينة دائمة لحياة الإنسان خُلق لها ويعيش بها ويبحث عنها ألا وهو: معرفة الحق لكن لا يكفي -حسب السنوسي- معرفته بل العمل به وتحقيقه بعد الاتصاف به فهو يركّز دائما على هذه المسألة التي تعدّ من مرتكزات العقيدة الأشعرية: العلم ثم العمل.

ثم انتقل بنا السنوسي في نصين آخرين عبر الزمان مقارنا بين الآن والآنذاك وبين البينا والبينهم؛ أي حالة فقهاء عهده ومستواهم التديني ومجتمع الصحابة الذي لا يزال يعيش بركة فترة النبوة؛ يقول فيهما:

"ليت أكابر علماء زماننا كانوا في معرفة السنن مثل إماء علماء السلف الصالح أو نسائهم أو صبيانهم، فلما هاجت البدع وخيف على من هو ضعيف النظر أن يخرج إلى شيء منها قيل له عليك بدين العجائز والصبيان لأنهم اكتسبوه من تربية الصحابة والتابعين، وأهل البدع لا يقصدونهم بالمحافظة فأمنوا من التلوث بإقذار البدع على عقائدهم التي أتقنوها بما يحتاج إليه من البراهين على حسب ما أخذوه من السلف الصالح وفهموه من الكتاب والسنة"[38].

وهذه المقارنة كانت بميزان الفاضلة للجو المقدس والروح المفعمة التي استجلبوها من المحيط الذي ترى فيه الصحابة فكانت الخيرية المعرفية والحجج البالغة النقلية سمة عصرهم وانعكس الأمر على جميع فئات مجتمع الأنذاك بدون استثناء لطبقاته فتمنى أن يكون أكابر علماء وقته- وهنا لنا وقفة عند تلك الطبقة التي خيّرها السنوسي لأن تكون- في مستوى طبقة الإماء وصبيان ونساء الصحابة.

فأكابر العلماء رغم أنهم قامات علمية شهدت لهم المصادر بذلك إلا أن مستواهم لم يبلغ مستوى نساء وصبيان علماء السلف، فهناك بون شاسع للمقارنة والمفاضلة بين هؤلاء وأولئك، فمعرفة السنن لدى محيط السلف جنّبهم الوقوع في البدع فكان لهم صمام أمان لمجابهة التشكيك والتبديع في تعاملهم مع الحياة، وختم هذه المقارنة بقطعية استحالة حصول نفس الكفاءة والمستوى الديني بين هاذين المجتمعين والطبقتين في نص قال فيه: "نقطع أن أكابر علماء زماننا لم يحصل لهم من العلم بالدين والسنة ما حصل لأدنى أَمَةٍ من إماء الصحابة أو صبي مميز من صبيانهم وكذا التابعون"[39].

- ملامح اعتقاد العامة: كان لحال العامة نصيب في نظر الإمام السنوسي في نطاق النظرة الشاملة لمحيطه ووقف متأملا ومشخّصًا لمجتمعه ومستوى اعتقاده؛ ولعل أهم نص يرصد لنا فيه الوضع العام لأهل زمانه: "تجد أذهان أهل هذا الزمان جامدة صعبة الانقياد للفهم مائلة أبدا لما لا يعني؛ إن نصحت لم تقبل وإن علّمت لم تتعلم وإن فهمت لم تفهم وإن فهِمَت ثقلت منها فهمها وإن بقي شيء بطرت وجعلته سُلَّمًا للدنيا ولصحبة الظلمة والتقرب إليهم إلا من عصمه الله بفضله وما أندر وجوده اليوم"[40].

والملاحَظ من هذا النص تلك الحركة البطيئة والعكسية للمجتمع؛ البطيئة في الاستيعاب والفطنة وصعوبة الفهم نظرا لطبقات من الاعتقاد البسيط والسطحي الغير المؤسس للتكلّس على فكرهم وسلوكهم ولم تلق بالا لحالها المتدني بضرورة الانقياد للعلماء وواجب الإصغاء لهم وفهمهم وملازمتهم؛ وهذا ما ولّد عندهم حركة عكسية في فهم حقيقة العلم المكتسب بين كوسيلة أم غاية والمستغل من طرفهم للدنيا؛ وعوض صحبة الصالحين انساقوا في درب الظلمة والتقرب إليهم كسبا لودهم والانتجاع في منتجع السلطة والدنيا وكسب حظيتهما.

وينقل لنا ملمحا آخر عن حالة العقائد في زمانه بين الاجتهاد في فهمها وإدراك كنه حقيقتها ثم وُلِجَ إليها بالتقليد يقول فيه: "أن هذا الحرز (العقائد) في زماننا ليس بمأمون؛ إذ لا إتقان للعقائد ولو بالتقليد فلا مدخل له في ذاك الأمر لعدم الاعتناء بتعليم عقائد الدين لاسيما النساء والصبيان، أما الإيماء والعبيد في زماننا فلا يقصدون بتعليم أصلا وكأنهم عند ملاكهم حيوان بهيمي لا تكليف عليهم ولهذا تجد الجهل بكثير من العقائد في كثير ممن يتعاطى العلم من أهل زماننا فكيف بالعامة فكيف بالنساء والصبيان فكيف بالإيماء والعبيد"[41].

فلطالما تعالى نداء السنوسي ونافح من أجله: التقليد والتقلد والإيمان، فهي أهم مسألة خاض فيها علماء المغرب الأوسط الجدال واحتدم السجال أكثر بينه وبين ابن زكري عن إيمان المقلد، علما أن السنوسي اشترط الدليل التفصيلي للخاصة والدليل الإجمالي للعامة، إلا أن هذا النص ينقلنا إلى مستوى آخر من التنازل من طرف السنوسي في المسألة إذ أضحى إتقان العقائد ولو بالتقليد في طريق الاندثار والزوال ولم يعد الكل يقلد إلا من له حظوة في ظل ما آلت إليه الفهوم والعقول.

وأرجع السبب إلى التخلي عن تعليم فئات المجتمع أمور عقائدهم، ورغم هذا فهو يميز مستوى التعلم والتعليم بين النساء والصبيان مع الإيماء والعبيد؛ فالنساء والصبيان بدرجة أقل من الاهتمام بهم واكتساب للمعارف وتعلم العقائد أما الإيماء والعبيد فقد نُسج عليهم خيوط الحرمان وأُلجموا تعليمهم ووُئد حقهم في التعليم، وهذه لفتة يمكن لنا بها رصد الحالة الاجتماعية لطبقات المجتمع بالمغرب الأوسط في حقوق هذه الفئة في التعليم واهتمام ملاكهم بهم؛ لكن هذا الوضع اعتبره السنوسي أقل تأثيرا حينما قرر بجهل من يتعاطى العلم في زمانه بأمور العقائد فكيف بالعامة التي لا حول لها ولا قوة في أن تُوصِل إليها العقائد على حقيقتها وتمكين فئات المجتمع في ظل عدم تمكن الخاصة فيها والجهل بها.

ولعل الأسباب التي أدت إلى هذا المستوى المتدني من الاعتقاد يوضحه في نص آخر يعلل فيه حين قال:" أكثر عامة الناس اليوم ليس في درجة الاعتقاد التقليدي المطابق بل في درجة الاعتقاد الفاسد والجهل المركب وما ذاك إلاّ لقرب هجوم أشراط الساعة الكبرى وقلة العلماء العاملين وانعدام المتعلمين الصادقين الفطنين وكثرة أبناء الدنيا المعجبين بآرائهم الضالين المضلين وتعرض الدجاجلة ممن انتمى إلى الرهبانية على غير أصل علم لقطع طريق السنة بحبائل نصبوها مزخرفة من حبائل مردة الشياطين"[42].

فأجمَلَ هنا الأسباب والمكانة التي تبوّأها الاعتقاد الذي وصل حد الفساد والجهل المركب وهذا ما ينبئ أن زمانه على شفا قيام الساعة التي ظل يبرز أشراطها في مختلف مضامين عقائده وهنا شرط من أشراطها: رفع (قبض) العلم، أضف عاملا آخر هو ندرة اقتران العلم بالعمل عند العلماء وظلت شقشقة لفظية

دون خوض غمار العمل بمقتضى العلم للمكتسب حتى يعد نافعا، أين التصق هذا العامل وبرزت تداعياته على المتعلمين، وكثرة أبناء الدنيا ساهم كذلك في انتشار الفساد الاعتقادي وساء إلى العلم وأهله وتسابق الكثير من العلماء إلى حضراتهم كسبا لرضاهم[43].

وأضاف سببا آخر يصم بسلوكه واعتقاده على سوء الحال وهو: المتصوفة بالاستثناء في عبارته: الدجاجلة ممن انتمى إلى الرهبانية؛ فلم يعد وقته ذاك التصوف الصافي المتشبع بالمعرفة اليقينية الذوقية المبنية على المرجعية الدينية المشكلة للمزج الثنائي بين الحقيقة والشريعة، فقد حاد بعض المتصوفة عن النهج الصافي واعتبرهم دجل مترهبنون زاغوا عن طريق السنة.

والإرهاصات السابقة ولّدت تداعيات أثرت في المعتقد وهذا ما تجلى في تحليله: "أما العامة فأكثرهم ممن لا يعتني بحضور مجالس العلماء ومخالطة أهل الخير تتحقق منهم اعتقاد التجسيم والجهة وتأثير الطبيعة وغيرها من اعتقادات أهل الباطل"[44].

ونظرا للخريطة الجغرافية البشرية المتمثلة في أهل البدو وأهل الحضر والخارطة التعليمية في نشر العلم، رصدنا نصين يضم أحدهما حكما عاما عن واقع التعليم في البادية وآخر يعطي نموذج عن المستوى في أحد مباحث العقيدة، فيقول في نص الحكم العام: "أما أهل البادية ومن بَعُدُ عن سماع مطلق العلم فلا تسأل عن حالهم"[45]؛ فتجنب أن يصف حالهم واكتفى بعبارة أبلغ وهو نفي السؤال خير من تصوير الحال: فلا تسأل عن حالهم، وكان حالهم في أنموذج وقفنا عليه في ثنايا نصوصه في معرض مبحث البعث يقول: "وكثير من أهل البادية ينكر البعث ولقد أخبرني بعض من أثق به أنه سمع ذلك صريحا منهم قال: وبعضهم ممن يحفظ لفظ القرآن"[46]، فأنموذج إنكار البعث يصدر ممن يحفظ كلام الله أصدق مثال عن حالة التردي والخناق المعرفي الذي يتخبط فيه أهل البادية.

كما نقل لنا السنوسي صورة عن اعتقاد أحد العامة في إحدى مدن المغرب الأوسط والتي جاء ذكرها في عقائده: حاضرة بجاية -وذكرها يفيد الباحث عن هذه الحاضرة في أن تمده تلك النصوص بشذرات من الصور تدعم تحليلاته وتصويره لواقع الحال خاصة في الجانب العلمي فرع الاعتقاد والتقليد، فجاء أول نص نقله لنا بأن "بعض المقلدين ينطق بكلمتي الشهادة من غير أن يعرف معناها ولا يميز الرسول من المرسل، وفي مثله وقعت أجوبة علماء بجاية وغيرهم من المحققين أن مثل هذا لا يضرب له في الإسلام بنصيب"[47].

وهذه الحالة أتى لنا السنوسي بتفصيل لحيثياتها في نص آخر: "قد سئل فقهاء بجاية وغيرهم من الأئمة في أوائل هذا القرن أو قبله بيسير عن رجل ينطق بكلمتي الشهادة ويصلي ويصوم ويحج ويفعل كذا وكذا ولكن إنما يأتي بمجرد صور الأقوال والأعمال فقط على حسب ما يرى الناس يقولون ويعملون حتى

أنه لينطق بكلمتي الشهادة ولا يفهم لها معنى ولا يدرك معنى الإله ولا معنى الرسول... فلا يدري من كلمتي الشهادة ما أثبت وما نفى وربما توهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم نظير الإله لما رآه لازم الذكر معه في كلمتي الشهادة وفي كثير من المواضع، فهل ينتفع هذا الشخص بما صدر منه من صورة القول ويصدق عليه حقيقة الإيمان فيما بينه وبين ربه أم لا؟ فأجابوا كلهم بأن مثل هذا لا يضرب له في الإسلام بنصيب وإن صدر منه من صول أقوال الإيمان وأفعاله ما وقع"[48].

ب- الحالة الاجتماعية والقيم الإسلامية: هذه المحطة كانت محل وقوف السنوسي لرصدها وهي ذات أهمية وتأثير بالغ تمكّننا من معرفة ملابسات الواقع والممارسات السلوكية والظواهر المنتشرة، وكانت الصفة الإجمالية التي يطلقها هي الفساد والتحلي في مظاهر عدّة؛ فكان أحد أسبابه ظهور الفتن التي تغلغلت في أوساط المجتمع وإن كان تحاشى ذكر طبيعة الفتن المنتشرة إلا أن هذا المصطلح يُدلُّنا على أمور ابتلي بها المجتمع بمختلف أصنافها على مختلف طبقاته فأتى حكمه العام بقوله:" الفساد في هذا الزمان فاض على البسيطة كلها عباب الفتن وعمتها سحائب للخالفات"[49]؛ ولعل هذه المخالفات كانت منافية للعرف والدين مما جعلها تصنف في دائرة الفتن كأسباب والفساد كنتاج حتمي للأسباب؛ وهذا ما جعله يلجأ إلى الله بالدعاء تحصنا من مرارة الحال: "نسأله سبحانه أن يلطف بجميع المؤمنين ويقيهم في هذا الزمان الصعب موارد الفتن"[50].

وينقل لنا الإمام السنوسي الحال القيمي للقيم الإسلامية التي غاب حسها وانتشر نقيضها؛ منها زهد الناس عن الحق وسريان الباطل فيهم وبينهم وحسبه: "علمي بما عليه أكثر أهل الزمان مِن ثِقَلِ الحق على قلوبهم"[51].

وأبين صورة عن هذا تلك التي نقلها لنا مبينا دور المعرفة والعلم في ظهور الحق والاتصاف به واقتران الجهل بالباطل وهذه إحدى الثنائيات المشكلة والمستمرة في الصراع والجدلية في الحياة، وسنة الاقتران والتدافع ظلت وتظل حاضرة بها تُعرف الحقائق ويُدرك الدرب يقول: "في هذا الزمان الصعب فاض فيه بحر الجهالة وانتشر فيه الباطل أي انتشار ورمى في كل ناحية من الأرض بأمواج إنكار الحق وبُغض أهله وتزيين الباطل بالزخرف العار"[52].

فهذا يكفينا لندرك إلى ما آل إليه المجتمع من انقلابه على أهم قيمة من القيم التي تبنى عليها الأمم وهو الحق وتبرئتهم من أهل الحق كذلك؛ فهذا فتح المجال واسعا ليسري الباطل في ممارساتهم وتكريسه داخل مجتمعهم، ويعود سبب الاعوجاج في الترجيحات إلى الجهل وهو سبب معرفي عادت تداعياته على الوضع الاجتماعي.

أضف إلى ما سبق مظهر آخر وجدلية قيمية تدافعية أخرى والمتمثلة في الخير والشر يقول: "والكل في هذا الزمان الذي قَلَّ خيره واستعسر وكثر شره واستيسر"[53]، وينقل لنا وصفا آخر: "زماننا هذا أواخر القرن التاسع وما عسى أن يصف الواصفون من شرور هذا الوقت وشرور أهله وقد أُغني فيه عن الخبر العيان"[54]؛ فالعيان والمشاهدة وبروز للظاهر على السطح أغنت الإنسان عن التحديث بها ووصفها فقد طفت إلى درجة أضحت سمة غالبة وإن لم تُبح نصوص عقائد السنوسي بها إلاّ أن كتب النوازل رصدتها بالجملة.

وكذلك قيمة أخرى غاب شعاعها وأظلم نقيضها وتبدلت موازين الحقيقة وهي المعروف والمنكر: "مثل هذا وأكثر منه لا يُستغرب في هذا الزمان الذي نحن فيه -أواخر القرن التاسع- الذي صار المعروف فيه منكرا والمنكر معروفا وتعذر فيه معرفة الحق لِتدور أهله واتسع الخرق فيه جدا على الراقع"[55].

فتعد هذه بعض للظاهر الاجتماعية والقيم العكسية المنتشرة بين أوساط مجتمع المغرب الأوسط لكن تبقى وجهة نظر شخصية من زاوية أحادية لا يمكن لنا تعميم الوضع إلاّ أنها تلميحات تحمل في ثناياها مرارة الواقع، وهذه المرارة حسب السنوسي تُتجاوز بـ: "التحصن بالسكوت وملازمة البيوت والرضا في المعاش بأدنى القوت ولو لا أن الله لم يزل يتفضل في هذا الزمان على نادر من الناس بأن يشرح صدورهم لفهم الحق وتمييزه عن الباطل وينوّر قلوبهم بحسن النية وحب الخير وأهله وعدم إصغائهم في اقتناص ما لاح لقلوبهم من النور إلى عذل كل عاذل لكنت أقول: إن إبداء العلم في زماننا هذا مجرم بالكلية"[56]، "والواجب قطعا لمن أراد النجاة بعد تحصيل ما لزم من العلم يعتزل الناس جملة ويكون جليس بيته ويبكي على نفسه ويدعو دعاء الغريق لعل الله يخرق له العادة ويحفظه من هذه الفتن المتراكمة في نفسه ودينه إلى أن يرتحل عن هذه الدنيا بموته"[57].

فهذه مجمل الحلول والمقترحات حسبه للخروج من فتن الزمان الذي عمّه الفساد على نحو: السكوت والدعاء والاعتزال، إلاّ أن أهم حصانة هي العلم لأن الهروب من الواقع بجهل يزيد من الوضع سوءا أما بالعلم يكون الإنسان في منأى عن أي تشققات تمس سلوكاته وهزات وتصدعات تؤثر في معتقده بفهمه الحقيقي لمعنى المعايشة مع المجتمع ومخالطتهم أو النفور من إعطاء النصح لهم وإرشادهم خاصة إن كان من الخاصة بحملها مهام رسالية وجب تبليغها على حقيقتها.

ج- قضايا تاريخية:

- انتشار البدع: سلط الإمام السنوسي الضوء على حالة لا دينية تسربت في أوساط المجتمع في عصره وانعكست على الوضع الاجتماعي ألا وهي البدع، وهذا المظهر يُقدم للباحث- عن الممارسات الاجتماعية المقترنة بالأصول الشرعية- الملمح العام الذي ظل المرجعية الأساسية وثوابت الهوية.

وقدمها لنا على صورتها الظاهرة والباطنة: "البدع لا يشهد لها أصل من أصول الشريعة والفرار منها غاية المقدور إلى ما كان عليه السلف الصالح سواء تعلقت تلك البدع بالعقائد ككثير من عقائد المعتزلة ومن في معناهم أو بالأعمال الظاهرة ككثير مما هو مشاهد في أزمنتنا وفيما قبلها"[58].

فأكد على أن البدع التي كانت متداولة تتنافى مع ضوابط الشريعة، وأظهر بأنها تجلت ملامحها في الظاهر كممارسات للمتصوفة والباطن المتجلية في الاعتقادات الفاسدة لأنصار المعتزلة، بهذا أفل نجم السنة ما جعله يتحسر إلى ما آلت إليه ميزان الأولويات والاقتداء لدى مجتمع عصره حين قال: "أما أزمنتنا هذه فالسنة فيها بين أهل البدع كالشعرة البيضاء في ظهر الثور الأسود فمن لم يجاهد اليوم نفسه في تعلم العلم وأخذه من العلماء الراسخين- وما أندر اليوم وجودهم وأعز لقائهم سيما في هذا العلم- مات على أنواع البدع والكفريات وهو لا يشعر"[59].

وأمام هذا التراجع للسنة واستفحال البدعة فسح المجال لظهور معتقدات فاسدة وفرق ضالة بدأت تتغلغل في أوساط مجتمع المغرب الأوسط عامتهم وخاصتهم، وإقرارنا بوجود جميع أطياف النحل والملل التي وردت في عقائده يبقى نسبيا يحتاج لمزيد تنقيب إلا أن أفكار بعضها مفعولُها ساري كآراء المعتزلة وأفكار الفلاسفة.

- **الملل والنحل**: ثنايا عقائد الإمام تحمل في طياتها بحكم طبيعة مواضيعها لقطات مواقفه منها وسقطات آرائها الهدامة الفاسدة، فكان الدعاء عليهم وسيلة ندرك بها انتشارها ومواقف علماء الأمة منها، ومن بين الفرق التي كانت محل ذكره: النصارى؛ ونصوص ذكرهم هي:

- "باطل ما قالت به النصارى- أهلكهم الله تعالى-"[60].
- "قالوا (النصارى) أبعدهم الله تعالى وأخلى منهم الأرض"[61].
- "قبحا لعقول هؤلاء الحمير فما أخسّ عقول صغيرة خسيسة تحملها أجسام كبيرة ونفوس بهيجة تحملها هياكل إنسانية"[62].

فهذه إشارات مقتضبة تبين الموقف من معتقداتهم والتوسل إلى الله أن يكفي الأمة شرهم، إلا أن هذه الإشارات لا توضح لنا -وتبقى غير كافية لمعرفة- مدى وجود معتقد النصارى بالمنطقة أم أن التفاتته لهذه النحلة كان في الإطار العام لصراع المعتقد بين المسيحية والإسلام.

كما أنه ذكر نحلة أخرى وهم القدرية فنعتهم بـ: "مجوس هذه الأمة أهلكهم الله"[63]، وكذا نحلة الحشوية: "فاعتقاد الحشوية تألف من الضلالات ثلاثة من تَهَوُّد وتَنَصُّر واعتزال"[64]، كذلك كان له رأي من للتصوفة فلاحظنا ذلك في معرض حديثه عن الدجاجلة ممن انتمى إلى الرهبانية هاهو يقول هنا: "كثيرا ما يغتر أصحاب هذا الطريق بالتخيلات الشيطانية أو النفسانية نوما ويقظة ويعدونها كرامات وهي في الحقيقة استدراج وزيادة لهم في أنواع الضلالة"[65].

بالإضافة إلى أهم فرقة تجاذلت حبل الصراع مع الأشاعرة على طول خط الصراع الفكري العقدي بين الفرق؛ للمعتزلة، فجاء ذكرها والاستعاذة منها بصيغة مضمرة حين رد السنوسي على العقباني الذي أكد الدسوقي اعتزاليته، وجاء الخطاب بصيغة المعلن عن موقفه من هذه الفرقة، ومما قاله عنهم: "والمعتزلة قبحهم الله "[66] وكذا:" المعتزلة قبح الله تعالى رأيهم"[67]، وهي عبارات تبين نظرته إليها والتي تؤكد وجود معتقدها بالمغرب الأوسط وانتحالها من قبل الخاصة.

- الفلسفة والفلاسفة: تعد مسائل الفلسفة ورؤى المتفلسفة أهم القضايا التي دارت حولها رحى الجدال تأليفا وتدريسا ومناقشة، لهذا جاء علم الكلام الإسلامي نقيضا لأطروحات الفلاسفة ومرتكزا على المرجعية النصية بإضفاء للمسحة العقلية وإعادة المنطق إلى أصالته، وكانت قضية الغيب أو ما وراء الطبيعة محور السجال والخناق فتمادى الفلاسفة في معالجتهم للمسألة وأوغلوا بالعقل إلى طور هو فوق طور العقل ولم يعقل العقل حدوده، لذا كانت أمضى الأسلحة لعلم الكلام الإسلامي المرجعية النصية المفعمة بالأدلة النقلية بتكتل مع المعرفة العقلية.

والنص الذي ينقل لنا تعاطي الفلسفة بالمغرب الأوسط يساهم في رصد الموقف من الفلسفة وحكم تعاطيها وانتشارها وردود العلماء تجاهها حيث يقول الإمام: "لقد خذل بعض الناس فتراه يُشَرِّفُ كلام الفلاسفة الملعونين ويشرّف الكتب التي تعرضت لنقل كثير من حماقاتهم لما تمكّن في نفسه الأمارة بالسوء من حب الرياسة وحب الإغراب على الناس بما ينُبهِمُ على كثير منهم من عبارات واصطلاحات يوهمهم أن تحتها علوما دقيقة نفيسة وليس تحتها إلا التخليط والهوس والكفر".

ويواصل بعدها تقديم نصيحة وتنبيه على خطورة الأخذ من فكر ومعتقد هؤلاء الفاسد مبادئ الدين: "وليحذر المبتدئ جهده أن يأخذ أصول دينه من الكتب التي حشيت بكلام الفلاسفة وأولع مؤلفها بنقل

هوسهم وما هو كفر صراح من عقائدهم التي ستروا نجاستها بما ينبهم على كثير من اصطلاحاتهم وعباراتهم التي أكثرها أسماء بلا مسميات، وذلك ككتب الإمام الفخر في علم الكلام وطوالع البيضاوي ومن حذا حذوهما في ذلك"[68].

فالوقفة التشخيصية لمباحث الفلسفة تناظرت باللحظة التصحيحية السنوسية للمفاهيم بالرد المشروعي حين صنّف عقائده، أين عمل على تجريد العقيدة من شوائب الفلسفة وتنقيح علم الكلام الممزوج بها، وينظر الباحث بوقلي حسن إلى أن السنوسي لم يرفض تدريس الفلسفة ولا نشاطها الفكري جملة وتفصيلا بل كان قصده إبطال أطروحاتها في الإلهيات والطبيعيات وهي قضايا تمس الثوابت الدينية والمبادئ العقلية؛ أين سعى السنوسي إلى نسف قاعدتها المنهجية المنطلقة من مسلمات واهية عكس الفكر الكلامي الذي ينطلق من عقيدة التوحيد المعقلنة وهذا لا يمنع السنوسي من قراءة الفلسفة كنسق قائم بنفسه... لأن الصدق المطلوب في المنطق صدق الاستدلال لا صدق المبادئ والمقدمات لكن العقيدة الأشعرية لابد من مقدمات تكون على المذهب لا على أهواء العقول المتغطرسة ومنطق الأهواء الجموحة[69].

وهذا الرأي والتحليل من قِبَلِهِ جعل الباحث بوكعبر يتساءل على ما الذي حمل الباحث بوقلي على القول بأن السنوسي كان متأثرا بالفلسفة؛ فحسبه -بوكعبر- إن كان الحامل له موافقة الإمام على بعض استدلالات الفلاسفة على وجود الله فهذا من باب وحدة التفكير الصحيح لا من باب التأثير[70].

إضافة إلى ما سبق هناك عبارات في خضم عقائد السنوسي تحوي موقف المتشدد عليهم والرافض لأطروحاتهم على نحو:

- "ملازمة الطبيعة لمطبوعها فمتوقف على عدم الموانع ووجود الشرائط كما تقول مثلا بتأثير النار بطبعها على مذهب الفلاسفة أبعدهم الله في احتراق الشيء يتوقف على وجود الشرط وهو مستها لذلك المحترق"[71].
- "ملحدة الفلاسفة أهلكهم الله"[72].
- "بطُلَ مذهب الفلاسفة والطبائعيين أذهلهم الله تعالى وأخلى منهم الأرض"[73].

د- الأدعية والشكاوى: صيغ الدعاء تمكننا من معرفة واقع الحال الذي يجعل الإنسان يفشل في التغيير والإصلاح فيلجأ إلى التضرع إلى الله، وتعد إحدى طرق الإفادة في إمداد الباحث التاريخي بواقع العصر، واحتوت عقائد الإمام السنوسي نماذج عدّة من الأدعية جاءت بمصطلحات متباينة لكنها تحمل في طياتها شكوى لواحد عن حال واحد، ومن هذه الأدعية:

- "اللهم يا غياث المستغيثين ويا ملجأ ذوي الفاقات والملهوفين... إليك يا أرحم الراحمين نشكو ما أصاب قلوبنا... غرقنا يا مولانا في بحار الذنوب وتلاطمت على قلوبنا وجوارحنا في هذه الأزمنة الفاسدة أمواج الفتن فأصبحنا نتخبط في قعار تلك البحار أبعد ما نكون من ساحل النجاة والاستقامة على قويم السنن، فيا منقذ الغرقاء بعد الإياس أنقذنا يا مولانا من تلك الظلمات إلى منبع حضرتك"[74].
- "اللهم لك الحمد وإليك المشتكى من أنفسنا ومن عوائق قد عسر معها في هذه الأزمنة الصعبة النجاة"[75].
- "اللهم يا منقذ الغرقى بعد أن يئسوا أنقذنا يا مولانا من هذا الوحل العظيم الذي نحن فيه بلا محنة"[76].

فجاءت أدعية السنوسي وتضرعه لله بأن ينجيه من فتن الزمان الفكرية العقدية والسلوكية وما يعانيه ظاهر المجتمع وباطن نفسه بعدما أدرك أن المأمورية ليست سهلة وهينة بل تتطلب تكاثف الجهود والتغيير الجذري مَن الفرد إلى المجتمع.

وشكواه تسترعي الانتباه وتستوجب الوقوف نظرا لطبيعة تربيته الصوفية التي ساهمت في هذه النظرة للمجتمع، فلا تنقطع شكواه التي تدل على فساد المجتمع وليست شكواه شكوى يائس بل شكوى عالم يجعلها مجالا للاعتبار وفرصة لتوجيه المجتمع وإرشادهم[77]، وأبلغ مصطلح يتضمن حكما عاما هو: الوحل العظيم؛ ولعله يقصد به الجهل والباطل اللذان ظلا متلازمين وفي صراع وتدافع تناظري على طول خط سير المجتمعات في مقابل العلم والحق.

فكرس السنوسي نفسه ودعا غيره إلى ضرورة الاعتناء بالعلم والمعرفة والتحصن بالعقيدة بمجابهة جبهات الباطل مؤسساته وأهله واجتثاثه من النفوس والعقول، والإعلاء بالعلم إلى رتب سامقة والاعتناء بأهله؛ فقد أحسن المشارقة وخذل المغاربة في إعطاء القيمة للعلم وأهله حين قال: "لا يجد أكثر اعتناء بمشايخنا ولا يحسن الأدب معهم بل يستحي الكثير منا أن ينسب بالتلمذة لمن كان خاملا ويكون جل انتفاعه بذلك الخامل فيعدل عن الانتساب إليه إلى من هو مشهور عند الظلمة ...ويرحم الله المشارقة ما أكثر اعتنائهم بمشايخهم وبالصالحين منهم"[78].

ويقدم لنا الباحث القدير أبو القاسم سعد الله تحليلا استوفى فيه قراءة معاناة السنوسي كطرف ممن لم ينصفهم مجتمع المغرب الأوسط وأوضاعهم المزرية والمضايقات المستمرة على جميع الأصعدة حين قال: "علماء الجزائر لم يكونوا يشكون من ظلم الحكام فقط بل كانوا يشكون من ظلم الناس أيضا، فلا يقيم الناس الوزن للعلماء ولا يعترفون لهم بحرمة أو عهد، وهي ظاهرة كانت أقسى على هؤلاء العلماء من ظلم الحكام وظلم العصر، هذا ما جعل السنوسي يترحم على المشارقة، فالحكام وأحوال العصر وموقف الناس

من العلماء الصالحين مجتمعة ومتفرقة هي التي جعلت عددا من علماء الجزائر خلال القرن التاسع الهجري يهاجرون من الجزائر، فقد منيت الجزائر بخسارة عندما هاجر العلماء"[79]؛ مؤقتا كان رحيلهم عبر الأوطان أم مؤبدا دون عودة إلى دار القرار؛ فسلّم علماء المغرب الأوسط أمرهم إلى بارئهم ليُنقذهم من الفساد والفتن وينصفهم من عصرهم وأهله.

ومجمل الأدعية تنم عن مستوى الحال وتقدم مادة معلوماتية مؤسسة ورصينة يستجلب منها الباحث الوضع الاجتماعي والواقع العلمي والعلاقات بين ثلاثية: الحكام والخاصة والعامة، وتبين مواطن الخلل وآمال العلماء في المعالجة والإصلاح بخطاب التبليغ بالنصائح والشكاوي بغك الانسداد في المعلوم واللا معلوم من العواقب.

هـ- الحلول السنوسية المقترحة: المنهج النقدي للسنوسي كان بناءا ولم يظل سلبيا، فقدم زبدة الحلول مستوحاة من شجرة التجربة في استقامة القيم وسلامة المعتقد بأن أهدى لنا عقائده على طبق كلامي يصوب به الاعوجاج، وأنهضته الهمة العالية مصلحا للمجتمع مجددا له عقيدته باعثا فيه روحا تسري في عروق القيم متجلية مظاهرها في سلوكياته ومترجما إياها في الواقع.

فالمحن المجتمعة رد عليها بالمنح العقدية الإصلاحية؛ هذا من ناحية التأليف ومجالس الدرس، أما ما كان يفكر فيه ودفعه لهذه الخطوة عبّر عنه في نص يوضح بجلاء ما كان يختلج في نفسه قائلا: "أدركتني غيرة غمّا وشفقة جمّا على عوام المسلمين بل وعلى كثير من الطلبة المتفقهين لما رأيت من بعضهم الفساد في عقائدهم وإعراضهم عن النظر في أدلة التوحيد رواها لهم كثير من مراشدهم فشرعت في إقراء هذه العقيدة (يقصد الوسطى) وغيرها"[80].

فقابل فساد العقائد بالتأليف فيها والنهوض بها بمجالس الدرس، وتفضّل الإمام السنوسي بلائحة من النصائح تأخذ الإنسان إلى بر الأمان من بحر الفتن والفساد، وجاءت كلها مسبقة بتركيز بالغ على وجوب العلم والمعرفة قبل الاستسلام أو العزلة أو مجابهة الواقع، ومن هذه النصائح:

- "إنما يكون المرء بعد تحصيل ما يحتاج إليه في أصل الدين وفروعه بملازمته الخلوة والاعتزال عن الناس جملة وإخمال الذكر جدا ومجانبة أنواع الرياسة وأصحابها وأسبابها جملة وتفصيلا، والعاقل الموفق في هذا الزمان من أنِسَ في خلوته بذكر مولانا وتلاوة كتابه العزيز والنظر في جوامع كلم نبيه ونزه عقله وطرفه في رياض تلك المعاني وعجائب تلك الأزهار فإن ذلك من اللذة مع السلامة من كل شر"[81].

- "أهم ما يشتغل به العاقل اللبيب في هذا الزمان الصعب أن يسعى فيما ينقذ به مهجته من الخلود في النار وليس ذلك إلا بإتقان عقائد التوحيد على الوجه الذي قرّره أئمة أهل السنة العارفون الأخيار"[82].

- "على العاقل أن ينظر أولا في من يحقق له هذا العلم ويختاره للصحبة من الأئمة المؤيّدين من الله بنور البصيرة الزاهدين بقلوبهم في هذا العَرَضِ الحاضر المشفقين على المساكين الرؤفاء على ضعفاء المؤمنين، فمن وجد أحدا على هذه الصفة في هذا الزمان القليل الخير جدا فليشدّ يده عليه وليعلم أنه لا يجد له- والله أعلم- ثانيا في عصره إذ من يكون على هذه الصفة أو قريبا منها لا يكون منهم في أواخر الزمان إلا الواحد ومن يقرب منه... ثم الغالب عليه في هذا الزمان الخفاء بحيث لا يُرشَدُ إليه إلا قليل من الناس"[83].

جملة النصائح التي يراها السنوسي تكسر طوق الخناق تُمسك شفرتها بإتقان عقائد التوحيد التي لطالما نظّر لها ودافع عنها وسعى لتبليغها، فهي حسبه المنقذ الوحيد للسلامة من ركام الفساد والفتن المنتشرة، كما يركز على التربية الفردية بالخلوة وملازمة الذكر والاعتزال الناس واستشعار كلام الله ونبيه والدخول في حضرتهما، كما ركز على الصحبة الصالحة التي تنقش أثرها في الصاحب والمصطحب لأن السنوسي عانى من التوحد في الإتباع وعلم المبالاة به إلا نفر فكان قاصيا في زمانه بما فضله الله عليه من المعرفة.

وتنهض نصوص التراجم لشخصية السنوسي معاناته هذه ونصائح أخرى أبين لمقصوده هذا في عقائده، فيقول ابن مريم نقلا عما قاله السنوسي: "ما عسى أن يصف الواصف من شرور هذا الوقت وشرور أهله وقد أغنى فيه الخبر عن العيان والواجب فيه قطعا لمن أراد النجاة بعد تحصيله ما يلزم من العلم أن يعتزل الناس جملة ويكون جليس بيته ويبكي على نفسه ويدعو دعاء الغريق لعل الله يخرق له العادة بفضله من هذه الفتن المتراكمة في نفسه ودينه إلى أن يرتحل عن هذه الدار بموته"[84]، لذا هذه الدعوة السنوسية إلى اعتزال الناس ليس هروبا من الواقع والعيش في عالم المثل[85]؛ كيف وهو من الداعين إلى وجوب اقتران العلم مع العمل، والعزلة التي كان يدعو إليها ليست عزلة كاملة[86]؛ بدليل علاقاته مع عموم الناس ودعوته العلماء إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كرده على قضية يهود توات ومباركته صنيع الإمام المغيلي؛ كما تنقل لنا المصادر سعيه لقضاء حوائج الناس.

وفي موضع آخر ينقل لنا التنبكتي قولا قاله السنوسي آخر عمره يؤكد فيه على وجوب التمسك بالعلماء والاقتداء بهم فمن ظفر بملازمتهم ظفر بالنجاة لأنهم جزر متأثرة في خضم بحر من العامة: "من الغرائب في زماننا هذا أن يوجد عالم جمع له علم الظاهر والباطن على أكمل وجه بحيث ينتفع به في العلمين فوجود مثله في غاية الندور فمن وجده فقد وجد كنزا عظيما دنيا وأخرى، فليشد عليه يده لئلا يضيع عن قرب فلا يجد مثله شرقا وغربا أبد"[87]، وأضاف ابن مريم على هذه الرواية التي لم تعيّن بالأسماء بعض هؤلاء الذين جمعوا بين العلمين وقال: "وكأنه أشار بنفسه"[88].

فدارس حياة السنوسي يجد منه نموذجا للعالم الذي استعمل علمه لا لنقد أحوال الناس المعاشية والتنبيه على نقاط الخطر في المجتمع بل لدعوة هؤلاء الناس إلى الهروب إلى الآخرة والصبر على ما كانوا يجدونه من ظلم السلطان وسوء الأحوال[89].

إذن ما يمكن لنا قوله أن العناصر السالفة الذكر ما هي إلا جزء من كل العناصر المشكلة للمجتمعات يمكن استنباطها من فرع من فروع العلوم وهو علم العقيدة، فكل الإشارات وشذرات المصطلحات والأحكام الصادرة إلا وتعبر عن واقع يعيشه المغرب الأوسط كما صورته المدونة العقدية ومحيط ساهمت عوامل شتى في إيجاده وصنعه وارتضائه للخاصة والعامة العيش في كنفه.

الخاتمة: تعالت أصوات الباحثين داعين إلى ضرورة اعتماد مستندات ومصادر أخرى جديدة لاستقاء المعلومات التاريخية، فأصبحت الوثيقة في البحث التاريخي متنوعة تستجمع قواها لبناء نسق متكامل لسياق الحدث، فتعد المدونة العقدية خزان ثري للتاريخ الذهني والفكري والثقافي والاجتماعي نظرا لمركزيتها في الإصلاح لأن سلامة المعتقد استقامة للسلوك والقيم في المجتمع.

بهذا تأكدت مشروعية الاعتماد على المدونة العقدية وأضحى تفريغ ثنايا الواقع للنبش في نصوصها واقع يفرضه البحث التاريخي وصارت الاستجابة لهذا المطلب لا غنى عنه، فهي ذات حمولة مثقلة من الإشارات والملامح تكشف عن حالة العصر وقتئذ.

والشاهد عندنا عقائد الإمام محمد بن يوسف السنوسي؛ التي يمكن لها أن ترتقي إلى وثيقة تاريخية إذا توفرت على باحث ماهر؛ لأن المادة العقدية تتطلب التسلح بمفاتيح وأدوات منهجية جديدة تُطرح على مختبر الباحثين وأصبحوا ملزمين بتنويع مناهجهم بالانفتاح على مناهج العلوم الشرعية؛ فكما وُلجت غياهب المدونة النوازلية الفقهية كذلك تسبر أغوار المدونة العقدية.

الهوامش:

1- محمد الكتاني: جدل العقل والنقل في مناهج التفكير الإسلامي في القديم والحديث ،دار الثقافة، الدار البيضاء، 1992، 269/2.

2- عبد القادر بوعقادة: "الدور السجالي لفقهاء المغرب الأوسط من خلال نوازل العلوم الطارئة والمذاهب الوافدة"، ضمن أعمال الملتقى الدولي: كتب النوازل الفقهية وقضايا مجتمع المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، المنعقد المسيلة، يومي: 18 و19 نوفمبر 2013، ص 32.---[3]أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2003، 181/2---4 - حققت من طرف الباحث ابو بكر بلقاسم ضيف الجزائري، وطبعت بدار عالم المعرفة عام 2011 .---5- التنبكتي: المصدر السابق، 134/1. ---[6]- حقق من قبل الباحث عبد الرزاق دحمون، دار المعرفة الدولية، 2011.---[7] - عبد القادر بن عزوز: "ملامح من العوامل المؤثرة في تكوين شخصية الإمام السنوسي"، مجلة رسالة المسجد، س 6، ع1، الجزائر، 2008، ص 46.---8- محمد بن يوسف السنوسي: العقيدة الكبرى وشرحها، تحقيق: ابو أحمد بلكرد بوكعبر، دار البصائر، الجزائر، 2011، ص 202 –203.

9- عمار جيدل: "مصنفات العلم في القرن التاسع من خلال كتاب المواهب للملالي التلمساني"، مجلة الوعي، ع 3-4، الجزائر، 2011، ص 105.---[10] - محمد بسكر: "الحركة الفكرية في تلمسان أواخر القرن التاسع –محمد بن يوسف السنوسي أنموذجا –"، مجلة الوعي، ع 3-4، الجزائر، 2011، ص 119.---[11] - محمود بوعياد: "جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في ق 9هـ/15م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1982، ص 48.---[12]- الطاهر بوناني: "التصوف العرفاني السني عند محمد بن يوسف السنوسي (ت 895هـ)"، مجلة عصور الجديدة، ع2، الجزائر، 2011، ص 325.---[13]- خالد زهري:

"مستويات الإبداع في علم الكلام الأشعري عند المغاربة"، ضمن كتاب: جهود المغاربة في خدمة المذهب الأشعري، مجموعة باحثين، تنسيق: جمال علال البختي، دار أبي رقراق ، ط1، الرباط، 2012، ص 81.---14- عبد القادر بوعقادة: المرجع السابق، ص 34.---15- جمال الدين بوقلي حسن: "تشخيص مهمة محمد بن يوسف السنوسي -كمدخل إلى فكره-"، مجلة الوعي، ع 3-4، الجزائر، 2011، ص 110.---16- بشار عمر النعيمي شعلان: "الإمام السنوسي ومنهجه في شرح أم البراهين"، مذكرة ماجستير، الجامعة الإسلامية بغداد، قسم أصول الدين، العراق، 2008، ص 54. سندرك فيما بعد احتمالا من يقصد السنوسي بفساد اعتقاد هؤلاء، وهو أحد علماء تلمسان، وهذا أثناء استنباطنا لكونه أين يعرج بطريقة مضمرة عن اعوجاج المسلك العقدي لهذا.---17- محمد بن إبراهيم بن عمر الملالي التلمساني (ق 10هـ/16م): مقدمة شرح الملالي على أم البراهين، تحقيق: محمد بسكر، ط1، دار كردادة، وسعادة (الجزائر)، 2013، ص 08. محمد بسكر: المرجع السابق، ص 118. ---18- عبد العزيز دحان: الإمام العلامة محمد بن يوسف السنوسي وجهوده في خدمة الحديث النبوي الشريف، دار كردادة، وسعادة (الجزائر)، 2011، ص 69. ---19- عبد العزيز دحان: المرجع السابق، ص 69.---[20] - عبد القادر بن عزوز: المرجع السابق، ص 47.---21- المرجع السابق، ص 48.---22- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 87/1.---23- محمد بسكر: المرجع السابق، ص 118-119.---24- تناول هذا الموضوع وقفٌ على عقائد ثلاثة للإمام السنوسي سعيا لاستقراء نصوص تدعم طرح هذا الموضوع وإثبات نجاعة المدونة العقدية في مساعدتنا بإمداداتها المعلوماتية عن العصر وواقع حاله، فاعتمدت على "العقيدة الكبرى وشرحها" المحققة من طرف الباحث أبو أحمد بلكرد بوكعبر، و"العقيدة الوسطى وشرحها" وكان نصيب تحقيقها للباحث يوسف أحمد، و"العقيدة الصغرى وشرحها" التي حققها الباحث: أحمد بن دهراد الذي تركها مخطوطة بيده وأخرجت للطبع بمساعدة الباحث جمال الدين حسن وقلي، أما العقائد الثلاثة الباقية فهي من تحقيق الباحث خالد زهري علما أنها بسيطة بحسب الفئات الموجهة إليها ولا تضمن إشارات عن واقع العصر فهي تضم تبيان وتوضيح مسلك الاعتقاد كيف يجب ويكون، لهذا استغنينا عن إدراجها ضمن المدونة العقدية المعنية بهذا الموضوع .---25- محمد بن يوسف السنوسي: العقيدة الوسطى وشرحها، تحقيق: يوسف أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005، ص 213.---26- السنوسي: العقيدة الصغرى وشرحها، تحقيق: أحمد بن دهراد؛ منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، 2011 ص 121.---27- السنوسي: العقيدة الكبرى وشرحها، ص 211.---28- السنوسي: العقيدة الصغرى وشرحها، ص 105.---29- محمد الدسوقي: حاشية الدسوقي على أم البراهين، دار الفكر، بيروت، د ت، ص 17. كما عرّج الورثيلاني على التأكيد بأن الشخصية المعنية بخطاب ومقصود السنوسي هي شخصية ابن زكري فقال: "والذي أشار إليه رضي الله تعالى عنه هو الإمام ابن زكري كما صرّح به الشاوي والله تعالى أعلم"، حسين بن محمد البجائي الورثيلاني: شرح خطبة شرح الصغرى للسنوسي، مخطوط ضمن مجموع، دار الكتب الوطنية، تونس، رقم 7711، و 119. ---30- ابن مريم: البستان في ذكر العلماء بتلمسان، تحقيق: محمد بن يوسف القاضي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2010. ص51، 320-321. التنبكتي: المصدر السابق، 137/1. 255/2.ما نلاحظه خلال تتبعنا لعقائد السنوسي تحاشيه ذكر ابن زكري بالاسم بل يفرده بصفات على نحو: "أجاب عنه بعض التلمسانيين في شرحه على عقيدة ابن الحاجب" (السنوسي: العقيدة الكبرى وشرحها، ص 499)، "بعض المعاصرين من التلمسانيين" (العقيدة الكبرى وشرحها، ص 488)، "اعترض بعض المعاصرين في شرح له على العقيدة المنسوبة لابن الحاجب" (العقيدة الكبرى وشرحها، ص 441).

31- السنوسي: العقيدة الكبرى وشرحها، ص 231.---32- السنوسي: العقيدة الوسطى وشرحها، ص 244-245.

33- السنوسي: العقيدة الصغرى وشرحها، ص 124 .---34- السنوسي: المصدر السابق، ص 105.

35- شعلان: المرجع السابق، ص 54-55.---36- السنوسي: العقيدة الكبرى وشرحها، ص 313.---37- السنوسي: العقيدة الوسطى وشرحها، ص 65.---38- السنوسي: العقيدة الكبرى وشرحها، ص 206.---39- السنوسي: المصدر السابق، ص 212.

40- المصدر السابق، ص 210.---41- المصدر السابق، ص 210.---42- المصدر السابق، ص 221.

43- جل كتب التراجم التي رصدت لنا ترجمة الإمام السنوسي اهتمت بإبراز هذه الصورة وهو هروبه وانقطاعه من السلطان وحاشيته ومن أبناء الدنيا، فكان دائما يفر من الالتقاء بهم أو مخالطتهم ونقلت لنا سعي السلطة إلى كسب الإمام السنوسي بالإغداق عليه بالامتيازات والتوسط لهم لكسب تأييد الرعية إلا أنه كان في عزلة العلاقة معهم لكن كان في سير عكسي للعلاقة فكان يقضي حوائج العامة لدى السلطان بمقابل رفضه قضاء حوائج السلطان لدى الرعية. التنبكتي: نيل الابتهاج، 253/2-254، ابن مريم: البستان، ص 318-320.

44- السنوسي: المصدر السابق، ص 230.---45- المصدر السابق، ص 210.---46- المصدر السابق، ص 230.

47- المصدر السابق، ص 231. فقد نزلت هذه الفتوى إلى أحمد بن عيسى البجائي وأجاب عنها وهي موجودة عند الونشريسي في المعيار، إلا أننا لا نقع في تهويل المسألة أو التهوين منها ولا تعميمها فهي حادثة واعتقاد فاسد اتصف به أحد أفراد أهل بجاية ولا يمكن لنا تعميم الحكم على سائر حال سكان الحاضرة فهي عينة نادرة، وللاستزادة عن السؤال والجواب التفصيلي للمسألة ينظر: أبو العباس أحمد بن أحمد بن يحيى الونشريسي (ت 914هـ/1511م): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء افريقية والأندلس والمغرب، تحقيق محمد حجي وآخرون، مطبوعات دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، 382/2-383.---48- السنوسي: العقيدة الوسطى وشرحها، ص 209.

49- السنوسي: المصدر السابق، ص 370.---50- السنوسي: العقيدة الصغرى وشرحها، ص 124.---51- السنوسي: العقيدة الوسطى وشرحها، ص 20.---52- السنوسي: العقيدة الصغرى وشرحها، ص 104. وأوضح قرية عن هذا الزمان الصعب حسب تعبير السنوسي بندرة أهل العلم والخير وعلاقة ذلك بالجهل والشر ما فسره الورثيلاني حين قال:" وعن ما أندر من يتقن ذلك في هذا الزمان أي زمان يكثر فيه الشر وفقد فيه الخير وهو الزمان الذي أشار إليه صلى الله عليه وسلم وهو الذي يرتفع فيه العلم النافع"، الورثيلاني: المخطوط السابق، ظ 113، وقدّم لنا أيضا شرحا مفصلا عن ذاك الزمان الصعب قائلا:" نعت الزمان وصعبه لتعذر الخير فيه لكثرة المحدثاتُ من البدع، وإنما يصعب الزمان ويسهل بما فيه وإلا فالزمان لا يصعب لذاته بل لما يعرض له من غلاء وشدة وعسر وعلم وجهل وطاعة ومعصية"، المخطوط السابق، ظ113، كما توسع في مقصود السنوسي على انتشار الباطل أين صَوّر لنا حال الوضع حين قال: " انتشر فيه الباطل وهو ضد الحق ويستلزم الفساد ثم اعلم أن الباطل قد عمّ الأوطان وكثر فيها ودليله في إيراد أهل البادية والقرى إلى الحاضرة وأهل المدن يتمنون الفرار إلى القرى والبادية وكذا من كان في الجبال يتمنى الانتقال إلى سواحل الأرض ومن فيها يتمنى الجبال وذلك من كثرة الباطل وانتشاره"، المخطوط السابق، و114. ---53- السنوسي: العقيدة الوسطى وشرحها، ص 17.---54- السنوسي: المصدر السابق، ص 17.

55- المصدر السابق، ص 22.---56- المصدر السابق، ص 22.---57- المصدر السابق، ص 19.---58- السنوسي: العقيدة الكبرى وشرحها، ص 602.---59- السنوسي: المصدر السابق، ص 220.---60- المصدر السابق، ص 293.

61- السنوسي: العقيدة الوسطى وشرحها، ص 138.---62- السنوسي: المصدر السابق، ص 140.---63- السنوسي: العقيدة الكبرى وشرحها، ص 454. العقيدة الوسطى وشرحها، ص 224.---64- السنوسي: العقيدة الكبرى وشرحها، ص 392.

65- السنوسي: المصدر السابق، ص 228.---66- السنوسي: العقيدة الصغرى، ص 135.---67- السنوسي: المصدر السابق، ص 136.---68- السنوسي: المصدر السابق، ص 123.---69- جمال الدين بوقلي حسن: المرجع السابق، ص 112.

70- السنوسي: مقدمة تحقيق العقيدة الكبرى وشرحها، ص 120.---71- السنوسي: العقيدة الكبرى وشرحها، ص 307.

72- السنوسي: العقيدة الوسطى وشرحها، ص 145.---73- السنوسي: العقيدة الصغرى وشرحها، ص 152 - 153.

74- السنوسي: العقيدة الوسطى وشرحها ص 371.---75- السنوسي: العقيدة الصغرى وشرحها، ص 242.---76- السنوسي: العقيدة الصغرى وشرحها، ص 186.---77- عبد العزيز دخان: المرجع السابق، ص 180.---78- ابن مريم: المصدر السابق، ص 11.---79- أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 50.---80- السنوسي: العقيدة الوسطى وشرحها، ص 21.

81- السنوسي: المصدر السابق، ص 370.---82- السنوسي: العقيدة الصغرى وشرحها، ص 104.---83- السنوسي: المصدر السابق، ص 122.---84- ابن مريم: المصدر السابق، ص 358.---85- ينقل لنا السنوسي روايتين للذين أنموذجين تملصوا من الواقع وظلوا في منأى عن مخالطة الناس وتركهم بين عبث المبتدعة، ولعل استدلاله ينم على وجوب التصدي للمبتدعة ومواجهة الفتن وعدم عزلة الناس بل الوقوف بجنبهم وتحصينهم وإرشادهم ليسلموا. انظر: العقيدة الكبرى وشرحها، ص 205.---86- عبد العزيز دخان: المرجع السابق، ص 80.---87- التنبكتي: المصدر السابق، 253/2.---88- ابن مريم: المصدر السابق، ص 318.---89- أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 38.

Abstract: Books of faith, doctrine and dogma are of a great benefit to mentral, intellictual cultural and social history for its importance in any reform. The rightness of a dogma reflects the truth of behaviour and values which are necessary in any historical research. They are great sings of the whole situation in a given era.

The evidence for what has been stated above is the book of M^ed Ben Youcef Essanoussi born in (1489 / 895) entitled «beliefs». It is considered as one of the most important and valuable document in any historical research. The book presents the real history with a more wholeness and integrity. Thus it is a reference book for all researchers in the domain of history.